فن نحت الحياة.....

1- العمارة الصادقة

كثيرا ما يشبه البعض العمارة بفن النحت وقد يكون سبب هذا المنحى في التشبيه أن البعد الرابع في الإثنين يشكل عنصرا هاما في التجربة الحسية للنتاج فضلا عن أن كلا الإثنين يعتنيان بتوزيع الكتل والنسب والحجوم وينسجان من الكتل الصماء "فناً" يحرك المشاعر والوجدان لدى المتلقي .

لكن في وجهة نظري أن من يظن أن العمارة تنحت أو تنشيء الكتلة فقط فهو خاطئ.

الحقيقة أنه في العمارة لا يتوقف إزميل المصمم عند حدود الكتلة فحسب بل يمتد إلى نحت الزمن فيخلق الحركة والإيقاع ويجسد الإحساس بهما في متواليات شيقة ومتناغمة تحدث كل منها اثراً ممتدا في النفس. فالمعماري لا يتعامل مع الزمن كمعطى أو عنصر سالب بل هو من يخلق تجربة من خامة الزمن يعيشها كل من يتعامل مع النتاج البنائي في الداخل وفي الخارج على السواء .

ومثلما الزمن ففي العمارة نحن ننحت الضوء والنور والظلال فنخلق صور متباينة التأثير البصري تدعم كل منها حالة شعورية وعاطفية متفردة في ظل ظروف ضوئية متعددة، فكثيرا ما نشعر بأحاسيس متباينة لنفس المبنى أو حتى لنفس الفراغ في ظل ظروف إضاءة مختلفة "ينحتها" المعماري الذكي لكي يمنحنا تلك التجارب الفريدة بالإحساس بالمكان.

النحت كفن في مجمله هو خلق نظام من الفوضى واستخراج قيمة من الشتات وليس شرطاً أن يكون الأمر مقصورا فقط على "المادة" الملموسة فتلك هي إحدى الأشياء التي تخضع لإزميل المعماري المصمم ولكنها ليست كل شيء.

هناك فارق جوهري آخر بين العمارة والنحت وأراه في غاية في الأهمية حينما يكون الحديث عن "عمارة صادقة" . فالمحك الأساسي للعمارة الصادقة هو نوعية التجربة الفراغية التي يعيشها ويتفاعل معها الناس أخذا وردا ، سلباً أو إيجابا داخل البناء قبل خارجه .

قد لا ابالغ ان قلت أن المعماري ينحت صورة كاملة للحياة في قلب البناء ، تماماً كما المحار والصدفة التي تحميه. في الداخل هناك استجابة وتناغم تام مع كل ما يشكل إيقاع الحياة اليومية للمستخدمين أما الخارج فهو تعبير صادق عن ذلك التناغم وهذا الإيقاع مضاف إليه تأثير المحيط.

لطالما كانت عمارتنا التقليدية عمارة كتلة بأكثر من أن تكون عمارة مسطحات، الكتلة هي الأساس. ليس فقط بسبب الحاجة الإنشائية بل لأنها كانت تتبع نفس هذا النهج الصادق في "نحت الحياة" في قلب البناء، حيث يبدأ إزميل المصمم من الداخل ليستجيب في كل حنية وفي كل ايوان أو كل عقد أو كل حائط لتفاصيل الحياة الخاصة بالقاطنين وفي خضوع تام لمجموعة من المحددات والقوانين الناظمة ليشكل ما يسمى بالـ "النسق" الذي يخلق الفراغ، ثم تتسلسل تلك الأنساق وصولا للخارج ليتخذ البناء شكله النهائي. الأمر تماما عكس ما تنتهجه العمارة "الحديثة" حيث ينشأ الفراغ من تجميع مجموعة من الأسطح والتشكيل يبدأ من الخارج وصولا للداخل وقد يصل الهوس بالشكل الخارجي إلى الحد الذي يخضع جميع الفراغات وما تحويه من أنشطة لتلك "النزوة" التشكيلية الخارجية وعلى القاطنين للمكان أن يكيفوا أنفسهم وتفاصيل حياتهم مع ما ينتج من فراغات داخلية.

العمارة الصادقة التي تخلق تلك الحيوات هي ليست مجرد صور ملونة مبهرجة وليست مجرد عبارات متفلسفة أو متحذلقة عن نوايا تصميمية لا أثر لها على الأرض بل هي تجربة كاملة تبدأ بفهم تام لمحددات التصميم بكافة ابعادها مرورا بكم الموازانات التي تحكم القرار التصميمي وانتهاء بترجمة كل ذلك في نتاج يحمل تجارب تفاعل حقيقية مع النتاج على أرض الواقع.

الصور لأحد أحدث مشروعاتنا التي نقوم بتصميمها الآن وهو سكن مزرعة خاصة بمدينة الأسماعيلية بمصر. والذي اجتهدنا في أن نخضع تصميمه لتلك المفاهيم وتلك الرؤى وهو ما سنوضحه في مقال أو عدة مقالات لاحقة بإذن الله.

محمد الرافعي، 1 أكتوبر 2021